الباب الرابع

أثر العقيدة في بناء الحضارة

لدى مالك بن نبي وفتح الله كولن

هذه جولة مع جانب من أفكار الأستاذين مالك بن نبي، ومحمد فتح الله كولن، حول دور العقيدة وأثرها في بناء الحضارة، واستعادة نهضة العالم الإسلامي وقد أكدت على أن هذين المفكرَيْن المسلمَيْن مهمومان بقضية النهضة، وأنهما يحملان هَمًا مشتركًا، وينتميان إلى غاية واحدة، وينطلقان من مصادر واحدة، ومرجعهما الفكري واحد كما أنهما يعالجان مشكلات لا تخلو من التشابه ثم إنهما جنديان في كتيبة هذا الفكر الإسلامي الذي يبحث عن حلول لنهضة هذه الأمة وإخراجها من عوامل التقهقر والتخلف التي أحاطت بها ويقدّران قيمة الفكر المحوّل إلى عمل وسلوك إيجابي تقديرًا عاليًا؛ لأن هذا الفكر الإيجابي هو السبيل إلى فتح العالم، وهو البديل عما كانت تقوم به الجيوش قديماً ويؤكد كثير من المهتمين بفلسفة الحضارة وفلسفة التاريخ، أهمية العقيدة في بناء الحضارة الإنسانية وفي ازدهارها، ومن أشهر هؤلاء

جوستاف لوبون مؤرخ الحضارة المشهور الذي أوضح هذه الأهمية على نحو قاطع لا يحتمل لَبْسًا؛ فقد ذكر أن أهم المبادئ التي تسير عليها الأمم، والتي تعتبر منار التاريخ وعماد الحضارة، تتمثل في المبادئ الدينية التي كانت على الدوام أهم عنصر في حياة الأمم والشعوب، ومن ثم كانت أهم عنصر في تاريخها، لذا كانت أكبر حوادث التاريخ التي أنتجت أعظم الآثار في حياة البشرية، هي قيام الحضارات وسقوطها.

وقد احتل الدين هذه المكانة العظمى، لأنه -في رأيه- هو العامل الوحيد الذي تتوحد به وقتًا ما منافع الأمة ومشاعرها وأفكارها ويقوم الدين بهذا كله دفعة واحدة، مستغنياً بذلك عن غيره من العناصر التي تتكون منها روح الأمة، والتي لا تنتج هذه النتيجة إلا على مدى طويل في التاريخ.

أن قيام الأمم بأعظم الأعمال، كان في عصر هذا التطور الذي يحدثه الدين في نفوس أتباعه، والذي بسببه تأسست أكبر الممالك في التاريخ وكان من أبرز الأمثلة تاريخ الأمة الإسلامية التي نشأت وتطورت على أساس تلك الفكرة الدينية فاستطاع هؤلاء الذين ينحدرون من سلالات بعض القبائل العربية، أن يقهروا أمماً كانت لا تعرف عنهم حتى الأسماء، وأن يشيّدوا تلك الدولة الكبرى.

ويوجد مثل هذا الرأي -كذلك- لدى مؤرخ وفيلسوف كبير هو أرنولد توينبي، الذي يقرر أن للعقائد الدينية دوراً مهمّاً للغاية في مجريات التاريخ؛ حيث كانت البوذية سببًا في وجود حضارة الشرق الأقصى، وكانت العقيدة الهندوكية وراء ميلاد الحضارة الهندية، وكانت العقيدة المسيحية سبباً في نشأة الحضارة المسيحية الشرقية والغربية وكان الإسلام هو المصدر الذي انبثقت منه الحضارتان؛ العربية والإيرانية وهكذا كان للعقيدة أثرها البالغ في نشأة الحضارة الإنسانية في عصورها المختلفة وفيما يتعلق بالإسلام خاصة أشار توينبي إلى أن التوفيق الذي أصابته الدولة الإسلامية وهو توفيق مذهل في رأيه كان يرجع إلى العقيدة الإسلامية وحدها ويتكرر مثل هذا الرأي لدى فلاسفة آخرين، ممن شُغِلوا بفلسفة الحضارة وبيان أثر الدين في نشأتها وازدهارها ومن هؤلاء هنري بين، وهرمان دي كيسلر لنج، وأمثالهما ممن لاحظوا هذا الارتباط الوثيق بين الدين والحضارة ومن ثم كان ينبغي -في نظر هؤلاء الباحثين أن نبحث في أي حضارة من الحضارات، عن أصلها الديني الذي بعثها.

ولم يكن غريباً إذن أن يهتم مفكرو الإسلام بتأصيل هذه الفكرة، وتطبيقها على الحضارة الإسلامية التي كان الإسلام بلا منازع هو أصل

نشأتها وباعث نهضتها، وإليه ترجع عوامل ازدهارها وقوتها وهو بالنسبة لها جذر الشجرة للشجرة؛ فهو الذي يمدها بالحياة والقوة والنماء، لذلك كانت شديدة الحاجة إليه فإذا حيل بينه وبينها، أو ضعف تأثيره في عقل أصحابها ووجدانهم وأخلاقهم، كان ذلك نذير ضعفها وتقهقرها، وربما أدى ذلك إلى انهيارها وفنائها وقد كان الخوف على الإسلام وحضارته ومصير الأمة التي تؤمن به، من أقوى البواعث على الاهتمام بإحياء هذه الفكرة على مستوى النظر العقلي، والشعور النفسي ، والسلوك الخلقي، والارتباط الاجتماعي، لاستنهاض الهمم، وتجديد اليقين بأن آخر هذه الأمة لن يصلح إلا بما صلح به أولها، وأن الإسلام بمفهومه الشامل عقيدة وشريعة وأخلاقا وتجربة تاريخية شامخة هو طوق النجاة للأمة من وهدتها الحضارية التي تردت فيها في القرون الأخيرة، وأنه صالح بما جعل الله فيه من سمات الخلود والقدرة على المقاومة والنزال التاريخي للقوى المعادية أن يستعيد عافيته، ويعاود قدرته على التأثير وتحريك الطاقات المادية والمعنوية لدى المؤمنين به، وأن يزيح من طريقه كل العوائق التي تحاول إضعافه وإبعاده، سواء كانت عوائق خارجية كالاحتلال والعلمانية، لا سيما في صورتها الشاملة المتجاهلة للدين أوالمقاومة له، أم كانت عوائق داخلية كالفُرقة والانقسام والتخلف وشيوع التقليد والتمذهب والتشدد المجافي لروح الدين.

لقد تحدث مالك بن نبي كثيرًا عن ضرورة المنطق العملي الذي يلزم لتحويل الأفكار إلى أعمال، وللخلاص من الجدل الفكري الذي لا يؤدي في النهاية إلى تغيير في النفس والمجتمع.

وانشغل بهذا الهمّ كثير من مفكري الإسلام في أقطاره المختلفة، وكان منهم على سبيل المثال لا الحصر خير الدين التونسي ، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد إقبال، وحسن البنا، والشيخ عبد الحميد بن باديس، وسعيد النورسي ثم كان من أكثر الذين انشغلوا بهذه القضية؛ مالك بن نبي المفكر الجزائري الكبير (١٩٧٣م) والمفكر التركي الكبير محمد فتح الله كولن.

١- أثر الدين في بناء الحضارة عند مالك بن نبي

كان بناء الحضارة واستعادة النهضة للعالم الإسلامي، من أهم الشواغل الفكرية لمالك بن نبي ويمكن اعتبار هذا الجانب، ركنًا أصيلاً وجوهريًا في مشروعه الفكري، كما تدل على ذلك كتاباته ومقالاته التي استمرت في الظهور، معبّرة عن اهتماماته الفكرية والعملية مدة تقارب نصف قرن ويمكن القول بأن انشغاله بهذه القضية الكبرى، لم يكن مجرد استجابة لدوافع فكرية أو فلسفية خالصة؛ بل كان استجابة لدوافع دينية

تتمثل في انتمائه إلى الإسلام الذي أقام على امتداد قرون حضارة شامخة أسهمت في تاريخ الحضارة الإنسانية ثم كان هذا الاهتمام، ردّ فعل لهذا الواقع المؤسف الذي كانت تمر به الأمة الإسلامية التي كان لها بفضل الإسلام مكانة رفيعة في بناء قواعد العلم والثقافة، والارتقاء بالأخلاق، وتحقيق مفاهيم العدالة والأخوة الإنسانية لكنها وقعت في القرون الأخيرة فريسة للأمّية والجمود الفكري والركود الحضاري، ثم للاحتلال الذي أنهك قواها ونهب ثرواتها، وعمل على فصلها عن جذورها الدينية وروافدها الثقافية، كما عمل على تفتيتها وتقسيمها على نحو أفقدها كثيرًا من عوامل قوتها وعناصر أصالتها، وطبعها في كثير من جوانب حياتها بالتبعية لنموذجه الحضاري.

وقد كان مما تبين لمالك بن نبي أن محنة العالم الإسلامي ترجع إلى سببين:

أولهما أن الأفكار التي أثبتت فعاليتها في بناء الحضارة الإسلامية منذ ألف عام فقدت التصاقها بالواقع، ومن ثم لم تعد قادرة على التأثير فيه. ومن ناحية ثانية، فإن أفكار أوروبا التي أدّت إلى تشييد الحضارة الأوروبية، ليست قادرة على النهوض بالعالم الإسلامي؛ لأنها وافدة من ثقافة غير ثقافته، ولم يتح لهذه الأفكار أن تؤثر في الواقع الإسلامي كما

أثرت في بلد كاليابان والمحنة إذن مركبة ونحن اليوم نقاسي هذا التدهور المزدوج، فالأفكار المخذولة في هذا الجانب أو ذاك، لها انتقام رهيب وكان مما أشار إليه في الجانب الأول المتعلق بالإسلام، أن العالم الإسلامي فقد الجذوة الروحية الدينية للإسلام، فلم يَعُدْ لها حضورها الفعال المؤثر في حياته كما كان الحال في عصر الازدهار الحضاري وفي هذا المعنى يقول: يقال إن المجتمع الإسلامي يعيش طبقًا لمبادئ القرآن، ومع ذلك فمن الأصوب أن نقول إنه يتكلم طبقًا لمبادئ القرآن.

وكان مما أشار إليه في الجانب الثاني قوله إن اليابان وقفت من الحضارة الغربية موقف التلميذ، ووقفنا منها موقف الزبون؛ وقد استورد اليابانيون من أوروبا أفكارًا، بينما استوردنا منها الأشياء، واستوردنا الرذائل في كثير من الأحيان قبل أن نأخذ منها بعض الأشياء الطيبة.

وكان على جميع المفكرين المهمومين بنهضة العالم الإسلامي، أن ينتبهوا إلى أن استعادة هذا العالم لنهضته، لن تتحقق باستيراد بعض العناصر من هنا أو من هناك ثم التلفيق بينها، بل كان عليهم أن يعملوا على تحديد العناصر الأساسية التي تسهم في خلق تركيب حضاري متجانس، بواسطة منهج يقوم على التحليل العلمي لهذه الظاهرة المركبة في جوانبها الفردية والاجتماعية، وفي عناصرها النفسية والتربوية.

عناصر بناء الحضارة

للحضارة تعريفات متعددة تختلف باختلاف الفلاسفة والمفكرين، كما تختلف باختلاف الثقافات والأيديولوجيات؛ ويقع الاختلاف في النظر إليها من حيث مقوماتها وعناصرها، ومن حيث الطابع الغالب عليها، ومن حيث علاقتها بالثقافة، وتساق التعريفات بالعشرات، بل تدخل في نطاق المئات ولا يشغل مالك بن نبي نفسه بالدخول في جدل نظري حول هذه التعريفات، بل يقدم تعريفًا لها من وجهة نظر وظيفية كما يقول: الحضارة جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره ثم هو يعرّفها تعريفًا آخر أكثر تفصيلاً فيقول عنها إنها مجموعة الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده، في كل طوْر من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية في هذا الطور من أطوار نموه، كالمدرسة والمعلم والمستشفى ونظام شبكة المواصلات واحترام شخصية الفرد، تمثل جميعاً أشكالاً مختلفة للمساعدة التي يريد ويقْدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه ويلاحظ أن الحضارة لديه تأتي بمفهوم شامل للعناصر المعنوية والمادية، وأن الجانب المعنوي والأخلاقي فيها يأتي سابقًا على

الجانب المادي منها كما يلاحظ في التعريفين، أن الحضارة ذات صبغة اجتماعية؛ لأن الفرد وحده لا يصنع حضارة، ومن ثم فإن المجتمع الذي هو صانع الحضارة مكلّف بأن يضمن وصول ثمرات الحضارة إلى كل فرد من أفراده، دون أن تستأثر بها طبقة أو فئة أو عنصر، كما وقع في بعض الحضارات القديمة والحديثة على حد سواء.

وإذا كان المجتمع الإسلامي يتطلع إلى تحقيق دورة جديدة من دورات الحضارة، فعليه أن يعرف مكانه من هذه الدورة، والشروط التي عليه أن يقوم بها، مع معرفة ما هو واقع فيه من عوامل الانحطاط، وما تنطوي عليه من أسباب التقدم ثم عليه أن يتذكر بدقة نقطة الانطلاق في دورة الحضارة السابقة، حتى يفيد من تجربته الماضية فيما يطمح إلى تحقيقه في حاضره وفي مستقبله، وها هو يقول: ولعل أعظم زيغنا وتنكبنا عن طريق التاريخ، أننا نجهل النقطة التي نبدأ منها تاريخَنا ولعل أكبر أخطاء القادة، أنهم يُسقطون من حسابهم هذه الملاحظة الاجتماعية، ومن هنا تبدأ الكارثة، ويخرج قطارنا عن طريقه، حيث يسير خبط عشواء.

إن الإنسان هو صانع التاريخ والحضارة وهو باني المجتمعات ومؤسس العمران، وهو مُبْدع الأفكار وحاملها وهي ذات قيمة كبرى في

بناء الحضارات لذلك لا يقاس غنى المجتمع بكمية ما يملك من أشياء، بل بمقدار ما فيه من أفكار.

وينبغي كذلك أن تكون على علم بالمقومات الأساسية والجوهرية التي تقوم عليها الحضارة، ويشير مالك في هذا الصدد إلى عناصر ثلاثة، هي الإنسان، والتراب، والوقت وقد تحدث عنها باستفاضة، وأشار إليها في أوائل ما كتبه عن النهضة مثل شروط النهضة، وظل حريصاً عليها فيما ظهر بعد ذلك من مؤلفات، حتى إنه ليقول في واحد من مؤلفاته الأخيرة: ولو سُمح لي أن ألخصّ وجهة نظر عَبّرت عنها منذ ربع قرن، لقلت إنه ليس من الضروري ولا من الممكن أن يكون لمجتمع فقيرِ الملياراتُ من الذهب كي ينهض، وإنما ينهض بالرصيد الذي لا يستطيع الدهر أن ينقص من قيمته شيئًا؛ الرصيد الذي وضعته العناية الإلهية بين يديه: الإنسان، والتراب، والوقت.

وليست هذه العناصر أو الأضلاع الثلاثة على درجة واحدة من الأهمية ، بل إن الإنسان هو أكثرها أهمية وقد يحدث أن تلمّ بمجتمع ما، ظروف أليمة تمحو منه عالم الأشياء محوًا كاملاً، أو تفقده ميزة السيطرة عليه بعضاً من الوقت: فإذا حدث في الوقت ذاته أن فقد المجتمع السيطرة على عالم الأفكار، كان الخراب ماحقًا أما إذا استطاع أن ينقذ أفكاره، فإنه

يكون قد أنقذ كل شيء؛ إذ يستطيع أن يعيد بناء عالم الأشياء ثم إن الإنسان هو الذي يعطي العنصرين الآخرين أهميتهما؛ فهو الذي يعمل لاستثمار عامل الزمن إذا كان إنسان حضارة، وهو الذي يتفاعل مع العناصر المادية التي يتضمنها عنصر التراب وتقوم التربية بدور مهم في تحقيق هذه المهمة الكبرى، بتزويد الإنسان بالعناصر الأخلاقية والجماعية والعملية والتطبيقية، الملائمة لكل نوع من أنواع المجتمع أو الصناعة حسب تعبير ابن خلدون وهكذا ينتهي مالك إلى القول بأنه وفي نقطة انطلاق الحضارة ليس أمامنا سوى العوامل المادية الثلاثة: الإنسان، التراب، الوقت وفي هذه العوامل ينحصر رأس مال الأمة الاجتماعي، الذي يمدها في خطواتها الأولى في التاريخ.

لكن هذه العوامل لا تقوم بدورها في بناء الحضارة، ولا تبدأ عملها في التاريخ كما يقول إذا ظلت منفصلة بعضها عن بعض ولا بد إذن من مزج هذه العناصر وتركيبها، وإلا لكان لزاماً أن تستطيع كل جماعة بشرية تمتلك هذه العناصر متفرقة، أن تنشئ حضارة وهذا غير متحقق في الواقع، لأن هناك جماعات بشرية ما زالت تعيش حتى الآن في حالة ما قبل الحضارة ومن أمثلة ذلك أن جزيرة العرب لم يكن بها قبل نزول القرآن إلا شعب بدوي يعيش في صحراء مجدبة، ومن ثم كانت هذه

العناصر راكدة لا تؤدي دورًا ما في التاريخ ويختلف المؤرخون وفلاسفة الحضارة في تحديد هذا العامل المؤثر الذي يقوم بتركيب هذه العناصر؛ فالمؤرخ البريطاني الشهير أرنولد توينبي يرى أن أهم العوامل في قيام الحضارة يتمثل فيما أسماه نظرية التحدي والاستجابة فالتحدي يثير القوى الكامنة في المجتمع، ويؤدي إلى تعظيم طاقتها وقدرتها على مقاومة العقبات والمشكلات والتحديات العارضة لكن مالكًا ينقد هذا الرأي ويرتضى رأيًا آخر لبعض فلاسفة الحضارة، ممن يذهبون إلى أن الدين هو أكثر العوامل تأثيرًا في بناء الحضارات.

ويرى مالك أن الدين في تركيبه لعناصر الحضارة، أشبه بالموصِّل الذي يقوم بتوصيل أطراف الأسلاك الكهربية بعضها ببعض حتى يتولد التيار الكهربي ويمكن تشبيهه كذلك بالعامل الوسيط في التفاعلات الكيميائية؛ فالأكسوجين والأيدروجين لا يكوّنان الماء تلقائيًا، بل إن ذلك التركيب يخضع لقانون معين يقتضي تدخل مركب ما، بدونه لا تتم عملية تكوين الماء: وبالمثل لنا الحق في أن نقول إن هناك ما يطلق عليه مركِّب الحضارة، أي العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض وهذا العامل الذي يدل عليه استقراء التاريخ، هو الفكرة الدينية التي رافقت دائماً تركيب الحضارة خلال التاريخ.

ولكي يؤكد هذه الفكرة، شرع في تحليل عدد من الحضارات، ليبحث عن السبب الفاعل في نشأتها حتى لا يقال إن هذا الأمر خاص بالإسلام وقدم في هذا المجال شواهد من الحضارة المسيحية والحضارة الإسلامية اللتين تنطلقان من الفكرة الدينية، وخلص من ذلك إلى القول بأن الحضارة لا تنبعث كما هو ملاحظ إلا بالعقيدة الدينية، وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها، ثم يضيف قائلاً: ولعله ليس من الغلو في شيء، أن يجد التاريخ في البوذية بذور الحضارة البوذية، وفي البرهمية نواة الحضارة البرهمية.

إذا كان المجتمع الإسلامي يتطلع إلى تحقيق دورة جديدة من دورات الحضارة، فإن عليه أن يعرف مكانه من هذه الدورة، والشروط التي عليه أن يقوم بها مع معرفةِ ما هو واقع فيه من عوامل الانحطاط، وما تنطوي عليه من أسباب التقدم وهكذا يقرر في لهجة واثقة مستندة إلى الاستقراء التاريخي، ما يشبه أن يكون قانونًا عاماً أو ما يسميه سرا كونيا يحتل فيه الدينُ هذا الموقع المهم في مجريات التاريخ الإنساني، يقول فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي من السماء أو هي على الأقل تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام؛ فكأنما قدَرُ الإنسان ألاّ تشرق عليه شمس الحضارة إلا

حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية إذ حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة يكتشف معها أسمى معاني الأشياء، التي تهيمن عليها عبقريته وتتفاعل معها.

ولا يفتأ مالك يؤكد هذه الفكرة التي كانت تلح على فكره ووجدانه، فكان يكررها كلما وجد مناسبة لذلك، وكان يضيف إليها شواهد جديدة عند تكراره لها وقد ذكر أن الحضارات الهندوسية والبوذية والموسوية والمسيحية والإسلامية، قد ولدت من هذه الانطلاقة الروحية التي أقامت هياكل براهما ويَهْوَهْ، ومعابد البوذية، والكنائس القوطية، والمساجد الإسلامية فكل هذه الحضارات المعاصرة لنا، قد شكلت تركيبها المتآلف الأصلي للإنسان والتراب والزمن، في مهد فكرة دينية.

وقد أحس مالك أن من الممكن أن يُعتَرَض على هذه التحليلات كلها بالماركسية التي ترفض الدين أصلاً، ولهذا كان حريصًا على القول بأن الاشتراكية أو الماركسية في الاتحاد السوفيتي الذي كان ما يزال موجودًا في حياة مالك ليست استثناء من هذا القانون العام الذي تخضع له تلك الحضارات التي ذكرها، مع أنها ترفض الدين وتراه وسيلة برجوازية يراد بها صرف الطبقات العاملة عن المطالبة بحقوقها من أصحاب المال، اكتفاء بما سيلقونه من جزاء في الآخرة؛ لأن الأيديولوجية الماركسية قد

تحولت عند أصحابها إلى عقيدة تماثل في قوتها وتأثيرها عقائد المؤمنين بالأديان، وأنها قد استخدمت لنموها واكتمالها كلّ البنى التحتية: النفسية والمفاهيم المسيحية ولا يفوت مالك بن نبي أن يشير إلى أن جيفارا الذي كان يخوض غمار النضال الماركسي لتحرير بعض دول أمريكا اللاتينية من براثن الاحتلال، كان يتحدث أحيانًا بنفس تدخله حدة دينية.

ولم يكن مالك يجهل أن هناك نظريات كثيرة تفسِّر قيام الحضارة أو النهضة وقد ذكر عددًا من هذه التفسيرات، ومن بينها ما يتعلق بعبقرية النوع أو العنصر البشري، ومنها ما يتعلق بتأثير الجغرافيا، ونظرية التحدي والاستجابة، ومنها ما يتعلق بالعوامل المادية والاقتصادية كما هو الشأن في التفسير الماركسي لكن ذلك كله لم يكن كافيًا لزحزحته عن انحيازه لتأثير الفكرة الدينية التي رأى أنها لم تكن ذات تأثير مهم في نشأة الحضارات في الماضي فحسب، بل إنها صالحة في الحاضر والمستقبل لإحداث النهضة أيضاً: فإن قوة التركيب لعناصر الحضارة، خالدة في جوهر الدين وليست ميزة خاصة بوقت ظهوره في التاريخ، فجوهر الدين حسب العبارة الشائعة مؤثر صالح في كل زمان ومكان ما لم يخالف الناسُ شروطه وقوانينه.

ولا يكتفي بتقرير هذه الفكرة عن تأثير الدين من الناحية النظرية، بل إنه يُعنَى بذكر بعض المسائل التفصيلية المستندة إلى وقائع عملية تشهد كلها بصحة الفكرة وتؤكدها وكان من جملة ما قاله أن الدين هو الذي يطلق الشرارة الروحية في النفس الإنسانية، ويعمل على إطلاق الطاقات الكامنة فيها، وتمثلها لحظةَ التوتر التي تحرك هذه الطاقات الخاملة الخامدة، وتدفعها إلى الحركة والتأثير والفاعلية.

وفي هذا يقول: إن الإسلام أتى بالمبررات الكفيلة بتحقيق أقصى ما يمكن من التوتر في الطاقات الاجتماعية، وأسمى ما يمكن من المصلحة التي تخدمها تلك الطاقات وبدأ هذا التأثير في حضارة الإسلام عندما تجلى الروح بغار حراء؛ فبدأت الحياة تدب في هذا المجتمع العربي، محدثة نقلة هائلة في حياته وفي رسالته.

ويشير مالك هنا إلى أن المجتمع العربي قبل الإسلام لم ينتج إلاّ عشر معلقات؛ ومعنى ذلك أنه كان في حالة من الخمود التي لا تسمح له باستثمار طاقاته، وأنه لم يكن في حالة من التوتر الاجتماعي الذي يدفع إلى الإنتاج بقوة وحرارة، وعندما جاء الإسلام استطاع أن يقيم حضارة خلال نصف قرن ومعنى ذلك أن الإسلام أتى بالمبررات الدافعة لليد والعقل والقلب، لكي تحقق متساندة حضارة ذات إشعاع.

ولا يقتصر دور الدين على إطلاق الشرارة أو إعطاء لحظة التوتر، بل إنه يعطي كذلك للحياة هدفاً ومعنى، ويعطيها امتداداً وديمومة، ويحدد لها قيماً كبرى يسعى الإنسان إلى تحقيقها وهكذا يمنح الدين للإنسان الوعي بهدف معين تصبح معه الحياة ذات دلالة ومعنى وحينما تمكّن الفكرة الدينية لهذا الهدف من جيل إلى جيل، ومن طبقة إلى أخرى، فإنها حينئذ تكون قد مكّنت لبقاء المجتمع ودوامه وهكذا كان للإسلام الفضل في تحريك الإنسان السابق على الحضارة، الذي تحول بالإسلام إلى أن يكون صانع حضارة، إلى حيث يسوقه الله.

إن قدرة الإسلام على بناء الحضارة قدرة متجددة، والعالم الإسلامي لن يستعيد حضارته إلا بالإسلام؛ ولكن الإسلام المتحرك في عقولنا وسلوكنا ، والمنبعث في صورة إسلام اجتماعي ولعل من أهم ما يحققه الدين للإنسان ، أنه يزوده بالقيم الأخلاقية التي تحكم سلوك الفرد، وتهذب مشاعره، وترتقي بسلوكه، وتجعله بالقبس الروحي الذي يمتلئ به ضميره، ويتطهر به فكره رقيبًا على ذاته، محاسبًا لنفسه، لا يستنكف من الاعتراف بخطئه، ولا يتأبى على تحمل عواقبه مهما كانت جسيمة ولا يستطيع شيء غير الدين، أن يمنح أتباعه مثل هذا المستوى العالي من التطهير الذاتي، سواء أكانوا من عامة الناس أم من حكامهم.

وبهذا تكون تلك الروح الخُلُقية منحة من السماء إلى الأرض تأتيها مع نزول الأديان عندما تولد الحضارات ثم إن الدين من أقوى العوامل تأثيرًا في الإرادة الإنسانية، التي يمنحها الدين صلابة وجرأة وقدرة على الحركة والمقاومة والتغيير التغيير المرهون في الإسلام بتغيير النفس؛ قال تعالى (إِنّ اللّهَ لاَ يُغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) ويرى أن هذا يمثل النص المبدئي للتاريخ التكويني، لكنّ على المسلمين ألاّ يكتفوا بتقرير هذا المبدأ من حيث الإيمان به فحسب، بل يجب أن ينقلوه إلى ساحة التاريخ، وبناء على ذلك يقول : وإنها لشرعة السماء: غيّر نفسك تُغيّر التاريخ.

ولا يتوقف تأثير الدين على التأثير في أخلاق الفرد وإرادته ووعيه، بل إن هذا التأثير يمتد إلى التأثير في عقل الإنسان وفكره؛ فالعقل يفقد فاعليته بل يفقد معناه إذا غابت قيم الإيمان فأينما يقف إشعاع الروح يخمد شعاع العقل؛ يفقد الإنسان تعطشه إلى الفهم، وإرادته للعمل عندما يفقد الهمة وقوة الإيمان، وليس هذا بغريب إذا تذكرنا أنه يشير إلى أن الدين يمنح الإنسان معنى الخلود، ويفتح له باب الأمل، ويمده بالطاقة التي تمكّنه من احتمال الألم ومواجهة النكبات ثم يمتد تأثير الدين إلى الحياة الاجتماعية أيضاً، فالدين يربط الأفراد بعضهم ببعض: (هُوَ الّذِي

أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)، وهو قادر على التأثير في الشبكة الروحية والعلاقات الاجتماعية والتغييرات النفسية وينقلهم بهذا، من الأنانية والفردية والعصبية والدوائر الضيقة المتمثلة في الفئة والطبقة والمستوى الاجتماعي والمادي، ليكون الجميع عباد الله إخواناً، يجمعهم هدف، وتربطهم غاية، يقول مالك بن نبى إن روح الإسلام هي التي خلقت من عناصر متفرقة كالأنصار والمهاجرين أول مجتمع إسلامي، حتى كان الرجل في المجتمع الجديد، يعرض على أخيه أن ينكحه مَن يختار من أزواجه بعد أن يطلقها له، لكي يبني بذلك أسرة.

وكان للمجتمع الإسلامي الوليد نفس الهمة عندما كان يسمع نشيد الإسلام الفتي في أعماق روحه، ذلك النشيد الذي كان يسوق الأبطال إلى ميادين القتال أو إلى ميادين الشغل سواء ثم إن المجتمع لا يستطيع أن يجابه أهوال الزمن، إلا بجهد تدعمه عقيدة لا يعتريها الشك أبداً، كذلك فإن التعاون بين الدولة والفرد، لا بد له من جذور في عقيدة تستطيع أن تجعل ثمن الجهد محتملاً مهما كانت قيمته لدى صاحبه، يضحّي بمصلحته وحتى بحياته في سبيل قضية مقدسة في نظره ولعل هذا كله يكشف لنا بوضوح رأي مالك في علاقة الدين عموماً بالحضارة، وعلاقة

الإسلام خصوصاً بها وهو يرى ونحن معه أن قدرة الإسلام على بناء الحضارة قدرة متجددة، وأن العالم الإسلامي لن يستعيد حضارته باتباع الشرق أو اتباع الغرب، بل إنه لن يستعيدها إلا بالإسلام؛ ولكنه يتساءل: أي إسلام؟،ثم يجيب قائلاً : الإسلام المتحرك في عقولنا وسلوكنا، والمنبعث في صورة إسلام اجتماعي وقوةُ التماسك هذه جديرة بأن تؤلف لنا حضارتنا المنشودة، وفي يدها ضماناً لذلك تجربة عمرها ألف عام، وحضارة ولدت على أرض قاحلة وسط البدو، رجال الفطرة والصحراء .

ويقرر مالك في لهجة حاسمة كانت تفرضها واقعيته أن الإسلام ليس في حاجة إلى مديح دون عمل به، لأن هذا نوع من التعويض بالكلام عن الواقع، والإسلام هو الفكرة والمنهج، أما الإنسان فهو الذي يقتنع بالفكرة ويطبق المنهج، ويستخدمهما في تحقيق تقدمه: ولا شك في أننا حين ننقد مظاهر ضعف هذا العامل، فإن ذلك خير وأفعل من أن نستطرد في تقريظ الآلة، ولا جدال في أن الإسلام قد احتفظ بمضائه كدُرّة فريدة في التاريخ، ولكن المسلم هو الذي فقد استخدامه الاجتماعي لقد تحدث مالك بن نبي كثيراً عن ضرورة المنطق العملي الذي يلزم لتحويل الأفكار إلى أعمال، وللخلاص من الجدل الفكري الذي لا يؤدي في النهاية إلى تغيير في النفس والمجتمع.

وقد بقيت أفكار مالك تحلّق في سماء الفكر الإسلامي، بما يتحقق لها من فهم عميق وتحليل للمشكلات التي يعاني منها المجتمع الإسلامي في حياته العملية، أو في علاقته بالقوى المؤثرة في العلاقات الدولية وقد حلل هذه المشكلات بروح الفليسوف، ومبضع الجراح وأدوات المهندس، مع رغبة في البناء وإرادة للتغيير ولكنها ظلت عملاً فكريًا شامخًا يقوم على تكامل في الرؤية، واعتزاز بالإسلام دينًا وحضارة وأخلاقا وجدارة باستعادة النهضة للأمة، بل للإنسانية وقد أشبه في هذا ما قدمه كثير من المشغولين بالنهضة في عالمنا الإسلامي منذ قرنين أو أكثر من الزمان، ولكنها كانت جميعاً بحاجة إلى الانتقال من عالم الفكر إلى عالم الواقع، ومن خزائن الكتب إلى حيز التطبيق وهذا هو الذي حاوله فريق آخر من المهتمين بنهضة الإسلام، وكان من أبرز هؤلاء الأستاذ محمد فتح لله كولن.

٢- محمد فتح لله كولن

بدأت حياة الأستاذ محمد فتح لله كولن في أواخر العقد الرابع من القرن العشرين ١٩٣٨م، وكان العالم الإسلامي عندئذ بل قبل ذلك بقرون يعاني من الركود الفكري والتخلف المادي، كما أنه خضع لصراع مع الحضارة الغربية التي جاءت إليه غازية محتلة تبتغي احتلال أرضه، والحصول

على ثرواته، وتقسيم شعوبه وبلدانه، وبذل الجهود لفرض نموذجها الحضاري عليه، وحملت إليه فكرها وثقافتها لتقاوم عوامل القوة والتماسك والاستمرار فيه، وعلى رأسها انتماء هذا العالم إلى الإسلام.

وكان لهذا كله، أثر في حياة المسلمين ويشير الأستاذ كولن إلى ما أسماه التآكل الذي أصاب المسلمين في بنائهم الداخلي، من حيث الحياة القلبية والروحية، وتخلفهم بمراحل طويلة عن العصر وكان من مظاهر هذا التآكل التضحية بالدين في سبيل الدنيا طمعًا في عمارة دنيانا، وتبنّينا منهجاً يرجّح الدنيا على الدين؛ فضاع الدين، وفرّت الدنيا، وعاش العالم المجيد التعيس مرحلة التفريغ لميراث مبارك من ألف عام.

ولم يكن كولن من هؤلاء الذين يستسلمون لضغط الواقع مهما كان ثقيلاً، بل إنه بما أوتي من بصيرة وأمل، وما تسلح به من همة وعزيمة كان ينظر إلى عوامل القوة التي ما تزال كامنة في هذا العالم الإسلامي رغم ما يبدو عليه من ضعف ولهذا نجده يقول: وما زالت الأرض بعد الدوار الطويل والتزلزل الشديد، رغم أنف الأشياء قادرة على تحقيق هذا التكوين في الحاضر، مالكة لطاقةٍ تُحقِق بعثًا جديدًا بعد الموت، وإنّ أمّتنا تمتلك تراكماً علميًا يجعلها قادرة على الريادة فيما حولها من التكوينات الجديدة ولم يغب عن فكر كولن ولا نظره، أن هناك محاولات للنهضة

والإصلاح والبعث تشهدها تركيا وأماكن أخرى في العالم الإسلامي، لكنه نظر إلى هذه المحاولات نظرة نقدية اتسمت بالصراحة والموضوعية والجرأة بل والحدة أحيانًا لذلك وصف بعض هذه المحاولات بأنها تقليد وضيع، وتَكلُّمٌ بلسان الغير، وتجديد شكلي، وظهر فيما يقال إنه تجديد تلبُسُ الفكر المِلّي الديني بلبوس الفسق وتخريب روح الملة وما كان لمثله أن يهادن مثل هذا الفكر، أو أن يتسامح مع هؤلاء الذين يرفعون رايته، وهو يرجو للأمة كلها وفي مقدمتها تركيا إصلاحًا حقيقيًا يعيد لها مجدها العلمي والفكري والسياسي الذي كان لها من قديم.

وقد تصدّى كولن بقوة لدعوات التغريب التي كانت تروّج للنموذج الغربي على الرغم من سوآته وسيئاته الكامنة في بنيته الأخلاقية وسلوكه العلمي واستعلائه على الشعوب، ثم إهماله للدين قبل هذا كله. وفي هذا يقول: وما فعله الغرب حتى اليوم هو إهمال القيمة الدينية، ووصايا السيد المسيح ؛ إذ شنوا الحروب في القارات، وأشاعوا الرق والاستغلال أينما حلوا، فلطخوا وجه العالم بالسواد، ثم يضيف قائلاً: ثم إن هذا العالم يحاول أن يسلي نفسه بالمنجزات العلمية والتكنولوجيا هنا وهناك عن غمِّه بالثروة والراحة أحيانًا، لكن من البدهي أنها لن تمنح الإنسان سعادة مستمرة أبداً لذلك ما من شيء يتخذه دواء وعلاجاً، إلا

ويزيد في قتامة أفق الأمل الإنساني، ويضيف بؤساً إلى بؤسه الروحي ثم نراه يكرر في لهجة حاسمة أن العالم لم يعرف حتى اليوم ايديولوجية نجحت في جمع البشر في ظلها زمنًا طويلاً، وأن الدول الغربية لم تستطع رغم الادعاءات الكثيرة أن تحقق الأمان للعالم، ولا أن تحقق السعادة له، ولم يفلح في ذلك دعاة الرأسمالية في الغرب ولا دعاة الشيوعية في الشرق، ولا المحايدون؛ وهذا الإخفاق زعزع أركان الثقة في هذه النظم أمام العالم، إضافة إلى عجز الحلول المطروحة وقصورها عن احتضان البشرية، ومخالفتها للطبيعة الإنسانية ولهذا تقف الإنسانية اليوم مع كل نظام يُعْرَضُ عليها، موقف الشك والقلق ثم ذكر أن من أهم عيوب هذه النظم وأنكاها، إغفالها مجموعة من القيم الإنسانية، فذلك كله قوّض أركان الأيديولوجيات كلها، فخلفت خرائب وأنقاضًا فكرية ولذلك يمكن القول بأن الجميع اليوم إلا شرذمة قليلة في حالة تزعزع وخيبة أمل مريب، وبحث عن مخرج خارق للأسباب .

ولم يكن هذا المفكر الذي نشأ في أحضان الإسلام، بحاجة إلى مزيد من البحث عن مخرج؛ لأن المخرج حاضر في ذهنه ووجدانه، مجرّب على مدى تاريخ طويل، وهو صالح لإعادة الحياة من جديد إلى هذا العالم

الإسلامي، الذي فقد روحه، وتخلى عن عوامل قوته وكان هذا المخرج هو اكتشاف حقيقة الإيمان من جديد، واستشعار هذا الإيمان في وجدانه.

وهنا ينطلق كولن في حديث مستفيض عن الدين وأهميته، وأثره في التكوين النفسي والخلقي والاجتماعي للمؤمنين به، بما يسمح بتقدم المؤمنين به على نحو لا يحققه غيره، بسبب هذا الانسجام والتكامل بين قوي النفس في الفرد، وبين الأفراد بعضهم وبعض في المجتمع ومن شأن هذا أن يؤدي إلى حسن استثمار كل الطاقات والملكات والمواهب والإرادات والأعمال، كما أنه يؤدي إلى ضبط حركتها، ومنع تصادمها؛ حتى لا يقع صراع أو اختلال في نظامها، وتضادّ في حركتها، بما يترتب على ذلك من فشل في تحقيق أهدافها ويضيف كولن أن الأديان كلها جاءت لترسخ هذا الفهم، فقد وَضَع كلُّ دين ضوابط لتنظيم القدرات الفردية، فحوّلتها إلى مقومات مهمة في توجيه كل الطاقات الكامنة الموجودة، نحو المسير إلى حضارة جديدة وعمران جديد فبإرشاد الدين يوازن كل فرد حريته وفعاليته الشخصية مع حركة المجتمع وفعاليته، والمتدين ينجح في هذا التفاعل بين الفرد والمجتمع، فيكون كالنجم في موقعه يدور في فلكه حول مركز الجذب، وحول نفسه في الوقت نفسه ويتحقق هذا بالدين؛ لأن الدين إذا تغلغل في الضمير وفي الشعور، يؤدي

إلى ما يشبه أن يكون ولادة جديدة للإنسان، ويؤثر في قواه تأثيرًا غير محدود، وأنه كلما تغلغل في القلوب فسيتمادى تأثيره على أنشطته الذهنية والفكرية والعلمية، وبعد مدة سيحقق حدوث طبيعة ثانية فيه هذه الطبيعة ستبدي تأثيرها من الأعماق رويدًا رويدًا في كل صفحات حياته ومعتقداته وعباداته وأخلاقه وعلاقاته الاجتماعية، وارتباطه بربه وسلوكياته.

إن كولن يقدّر قيمة الفكر تقديرًا عاليًا، ويرى أنه في ظروف عصرنا هو السبيل إلى فتح العالم، وهو البديل عما كانت تقوم به الجيوش قديماً، لذلك كان من صفات إنسان الفكر أنه وليّ الحق اللدني الذي يُعِدّ قادة أركان الروح ومهندسي العقل وعمّال الفكر، بدلاً من استخدام القوة المادية لفتح البلاد ودحر الجيوش.

وإذا كان هذا التأثير يرتبط بالدين عموماً، فإن ارتباطه بالإسلام أكثر قوة بسبب هذا الشمول الذي للإسلام وهو ليس شمولاً في جمعه بين العقيدة والعبادة والشريعة والأخلاق فحسب وهذا من عوامل كماله وتميزه بل إنه شمول يمتد إلى التأثير البيّن في الحياة الاجتماعية؛ لأنه يقيم حياة الأفراد والجماعات والنظم على العدل والاستقامة، ويحرر البشر من سلطة الأقلية، ويعمل على تحقيق المساواة وتكافؤ الفرص،

ويقاوم الإقصاء والإبعاد لأصحاب الكفاءات لأسباب عنصرية أو سلطوية،ثم يعمل على إيقاظ الحركة الداخلية للفرد ويراعي خصوصيات الإنسان الأساسية مراعاة تامة، ويوقظ ملكاته الذهنية والفكرية والروحية جميعها، ثم يشحنه بطاقات متنوعة، فلا يحصر توجهه في العقل والفكر، ولا يهمل أحاسيسه، ولا يغض البصر عن آليات وجدانه كما تفعل بعض المدارس الفلسفية، بل إن الإسلام ينظر إلى الإنسان بعين الخالق تعالى، فيضعه في قالب متين بكلِّه الذي لا يقبل التجزؤ والانقسام ويعدُّه بعناصر وجوده المادية والمعنوية كلها، ليكون جاهزًا للسعادة الدنوية والأخروية، وأهلاً لدخول الجنة.

ويتنوع حديث كولن عن هذا الإسلام ويشف، ويكتسب مسحة روحية وجدانية -فضلاً عن طابعها العقلي ليزداد حديثه عن الإسلام قوة في بيان تأثيره في الفرد والمجتمع، ويتجلى هذا في بعض الأوصاف التي وصف بها هذا التأثير فالإسلام هو مصدر غذائنا الأصيل كحليب الأمهات وهو - كذلك يحدد للإنسان الهدف الذي هو مُوَلِّد الطاقة الدينامو الأساسي لهذا الإنسان، وهو الذي يرتقي بالملكات الإنسانية عندما تعتنق هذا الدين، فترث مواريث الإيمان في النفوس والعقول والمشاعر والأحاسيس ثم يتحول هذا كله في النفس الإنسانية إلى نوع من العشق والاشتياق الذي

يجعل من الإنسان المؤمن إنسانًا جديدًا قائمًا على محور الوجدان ثم يمتد التأثير إلى كل سلوكيات هذا الإنسان العاشق المشتاق، فتصير عباداته وطاعاته وحركته كلها انعكاساً لتأثير الدين في نفسه، وتتمحور حركاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية كلها حول قوة الجذب المركزي هذه، فتتشكل فعالياته الفنية وأنشطته الثقافية بهذه المقومات الداخلية وتتوسع بها، ويصير هذا الإيمان بمثابة شجرة طوبى.

وتتكامل كل صفات الكمال للإسلام، فهو يجمع بين العقل والقلب، وبين الدين والعلم، وبين الفكر والعمل، وبين الاعتقاد والسلوك، وبين المنطق والشعور، دون صراع أو تنافر ثم هو يقدم للبشرية كلها نظاماً للحياة جديداً وفريداً يقيم الوشائج بين الكائنات وخالقها، ويقطع دابر التناقضات في الإلهيات، ويسد كل الثغرات العقلية والمنطقية والفكرية والعاطفية في قلوب المخاطبين وعقولهم ثم تعلو نبرة الحديث عن الإسلام إلى آفاق علوية حين يصور آيات القرآن بأنها مائدة سماوية، وماء كوثر عذب رقيق، وشلال هادر شديد التأثير في قلوب من يستمعون إليه، وهو أشبه بفوارات دائمة الانبجاس، أو بالأحرى كالفواكه في تباشيرها الأولى القادمة من عالم الألوهية ولا يوجد مثيل للإسلام في استجابته لحاجات الإنسان بل لن يوجد وهذا طبيعي للغاية لأن مصدره الأول هو الوحي

الصافي النقي، وتفسيره الأول هو السُّنّة، فكما أن القرآن معجز، فكذلك نظامه المنبثق والمكوّن من خطاباته وتعاليمه معجز، وكما أن القرآن لا مثيل ولا شبيه له، فلا مثيل ولا نظير للإسلام الذي يعد من آثاره.

لم ينحصر مشروع فتح الله كولن في نطاق الفكر، بل إنه خرج إلى نطاق الحركة والتأثير، وتمثل في جماعة الخدمة التي اعتنقت أفكاره، وبذلت من روحها وجهدها وجهادها من أجل تطبيقها، وتحملت في سبيلها تضحيات ومشقات وحركة دائبة مستمرة؛ في تجرد كامل، وإخلاص عظيم، ودون انتظار لميزة مادية، أو مكانة اجتماعية، أو منصب رفيع وأما الروح الذي ينبثق من هذا الإسلام، فإنه لا يزال كالبحر الذي لا تسكن أمواجه، طاهرًا أبدًا، نديًا عميقًا لا يتكدر قط بالأوساخ الفكرية لأي زمان أو مكان.

أثر الإيمان في بناء الأمم

إن لصدق الإيمان بالله آثاره الواضحات في واقع حياة الأمم، ويتجلى ذلك بوضوح عند تتبع حياة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة صحابته إن الكرام كما أن الإيمان هو الركيزة الأساسية لتمكين الأمم في الأرض، بغض النظر عما تملكه من قوة وسطوة فيجب على أمة الإسلام القيام

بدورها المنتظر في نشر الإيمان الصحيح ليتحقق بذلك للبشرية سعادة الدنيا والآخرة.

العقيدة وأثرها في صياغة الشخصية المسلمة

خرجت قريش - يوم أحد - بحدِّها وجدِّها وحديدها وأحابيشها، ومَن تابعها مِن بني كنانة، وأهل تهامة والظعينة موتورين بآبائهم وإخوانهم، يُجعجع فرسانهم، وتضرب بالدف نساؤهم، وينادي بالثأر جميعهم، فيهم مائتا فارس، على رأسهم خالد بن الوليد؛ يواجهون سبعمائة رجل؛ رجال حُسر، ولم يغنِ قريشًا أن بها خالد بن الوليد، ولم يستطع أن يفعل شيئًا إلا على غِرَّة، والمسلمون مشغولون، قد انفضوا من مواقعهم، واستدار بعضهم على بعض؛ و برغم ذلك، ما استطاع خالدٌ بثلاثة آلاف أن يقتل إلا سبعين رجلًا، أو أقل .

وفي يوم الحديبية خرجت قريش، كخروجها يوم أُحُد أو أشدَّ، ووقف خالد بن الوليد على رأس فرسان قريش، وما جرؤ على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته، وهم حُرُمٌ لا يحملون إلا سيف الراحلة، بل

وقف يبحث عن وقت غفلة؛ كي يأخذهم على غِرَّة كما فعل يوم أحد وما استطاع شيئًا.

وفي سنة تسع من الهجرة عقدَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لواءً لخالد بن الوليد بأربعمائة وعشرين فارسًا، إلى إحدى قرى الشام (دومة الجندل)؛ كي يُغِير على مَلكها أُكَيْدِر؛ فقال خالد: يا رسول الله، كيف لي به وسط بلاد كَلْبٍ، وإنما أنا في أناس يسير؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم -: ستجده يصيد البقر؛ فتأخذه؛ فتشجع خالد، وسار إليه فوجده على الحال التي وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذه .

وبعد عامين فقط: تجمَّعت قبائل كلب، ومَن جاورها مِن بني تميم، ومعهم أحياء قضاعة عند دومة الجندل؛ فتحرك إليهم خالدٌ في جيش أقل منهم بكثير جدًّا، وذبحهم في الحصون وحولها.

وبعد عامين آخرين: ركب خالد بن الوليد في نفر يسير - بالنسبة لقوَّات العدوِّ - إلى مَن ارتد مِن العرب؛ من غطفان، وبني حنيفة. ثم اتجه إلى أهل العراق والشام؛ فأتى على قوى الكفر كلها؛ من عرب، وفرس، وروم في تلك البلاد، وما تردد في معركة، وما انهزم.

ما الذي حدث؟

خالد هو خالد، بل في الإسلام كبرت سنه ورقَّ بعض الشيء عظمه، فكيف يَهزم كل هذه الجيوش المتماسكة المجتمعة؟ وكيف

يقتل كل هذا العدد من البشر؟ حدث هناك نوع من التغيُّر في المفاهيم، والتصورات الداخلية، التي تُحرِّك خالد بن الوليد - رضي الله عنه - ومَن معه؛ نوع جديد من المفاهيم عن طبيعة المعركة، وأسباب النصر والهزيمة؛ جعلت خالدًا يُحْدث كل هذا الأثر في واقع الناس. وتدبَّر هذين الموقفين:

الإسلام يُغيِّر مفاهيم خالد:

يوم اليرموك :جاء أحدهم يخوفه من الروم - وقد أقبلَت كالسحابة السوداء، تسد الأفق، تموج بهم الأرض، كما يموج البحر، صوتهم كالرعد - كما يصفهم ابن كثير على لسان من حضر المعركة والمسلمون قِلة : جاء يقول لخالد: ما أكثرَ الرومَ وأقل المسلمين! فقال خالد: ويلك! أتخوفني بالروم؟ إنما تكثر الجنود بالنصر (أي من الله ، وتقل بالخذلان، لا بعدد الرجال، والله لوددت أن الأشقر يعني فرسه براءٌ مِن تَوَجِّيه، وأنهم أضعِفوا في العدد وحين همَّ بعبور بادية الشام من العراق إلى اليرموك؛ خاف مَن معه؛ واستداروا كأنهم يريدون مراجعته في أمر العبور إلى الشام؛ فقام فيهم خطيبًا بهذه الكلمات: اعلموا أن المعونة على قدر النية، والأجر على قدر الاحتساب؛ فأروا الله من أنفسكم خيرًا؛ يمدكم بمَدده.

خالد بالأمس القريب، حين أُمِرَ بالتوجُّه لأُكيدر؛ يحسب للعدد حسابًا

وينادي: كيف... وإنما أنا في نفر يسير؟ وهو اليوم يلغي عامل العدد من أسباب النصر والهزيمة .

وخالد يتمنى شفاء فرسه؛ ليكون أنشط في القتال، مقابل أن يزيد جيش الروم ضعفًا كاملًا .أهذا خالد يوم أحد والحديبية؟!

وخالد يُقدم على عبور المفازة، سالكًا طريقًا لا يظن عاقل أن جيشًا يسير به وينجو؛ معتمدًا على أن المعونة - من الله - على قدر النية؛ فهو يتكلم بأن السبب المطلوب بذْله لعبور هذه المفازة هو صدْق اللجوء إلى الله، وحسْن التوكل عليه، ويُذكِّر من معه بالاحتساب؛ حتى لا يضيع الأجر.

<u>العقيدة.. ومقاييس أخرى للنصر والهزيمة:</u>

إن العامل الأساسي هو العقيدة، وليس شخص خالد - رضي الله عنه - فكما رأيت، حَدَثت تغيرات نوعية في شخصية خالد، وما أنجزه بعد الإسلام، وهذا الأثر ازداد تدريجيًّا بثبات الإسلام في صدر أبي سليمان – خالد بن الوليد - كما علل هو، رضي الله عنه وأرضاه . يزداد هذا الأمر وضوحًا في ذهنك حين تتذكر أن الفتوحات الإسلامية لم تتأثر مطلقًا برحيل خالد عن القيادة، ولكن برحيل الجيل الأول من الصحابة، ومجيء من كانوا أقلَّ شأنًا في أمر الدين . ويزيد من هذه الفرضية أن النصر، والهزيمة، وطبيعة المعركة - من حيث أطرافها – لها تصوُّر خاص في الشريعة الإسلامية؛ فالشريعة تتكلم

على حضور الملائكة القتال؛ تثبِّت الذين آمنوا، وتلقي الرعب في قلوب الذين كفروا؛ قال الله تعالى :- (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ)، وحضور الملائكة الكرام متوقّف على تقوى الله، لا على عدد المسلمين وعتادهم، ولا على كونهم منتسبين للإسلام فقط؛ يقول الله – تعالى :- (بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ) وفي التصور الإسلامي - عن النصر والهزيمة - نجد أن العدد ليس من الأهمية بمكان؛ قال تعالى :- (كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ):ونجد – أيضًا - أننا سِتار لقدر الله - سبحانه وتعالى - فالله يُنفذ مِن خلال عباده قدَرَه، ويُظهر آثارَ صفاته؛ فما علينا إلا أن نأخذ بالأسباب المتاحة للنصر؛ والله ينصر من ينصره . وفي الشريعة الإسلامية: الهزيمة سببها الذنوب، ومنها: التقصير في الأخذ بالأسباب المتاحة، كما أمر الله؛ قال الله – تعالى :- (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ، وقال – سبحانه :- (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ

عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّـهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) والشاهد: أن هذه معارف يكتسبها أحدُنا بقراءتها فقط - إن صدَّق المخبرَ بها - أما أن تستيقن منها، وتصطبغ بها، وتتعامل من خلالها - فهذا لا تناله في يوم وليلة؛ فالشهوات والشبهات تتصارع مع خطاب الوحي، ولا يستقر الإيمان في القلب إلا بعدَ حينٍ، وبين حين وآخر يجد من يناوشه، ويريد زحزحته، فإن لم ينتبه، تزحزح.

obeikan.com